مراجعات في الكتب

محمد أمارة وعبد الرحمن مرعي. **اللغة في الصراع قراءة تحليلية في المفاهيم اللغوية حول الصراع العربي– الإسرائيلي.** كفر قرع: دار الهدى؛ الأردن: دار الفكر، ٢٠٠٨. VIII صفحات، ٣٢٩ صفحة.

لو افتتحنا حديثنا في مجال النقد الأدبي، وأخذنا مثالا حيًّا من الأدب الإيرلندي، نعني قصة "يوليسيس" للكاتب جيمس جويس، الذي صور لنا الانهيار والتناقض التي تتميز بها الحضارة الحديثة، لوجدنا بأنّ جويس أبرز فكرته بعدة وسائل أهمها اللغة التي عبرت عن معانٍ رمزية، تنبض بالحركة والحرارة والحياة.

لا شكّ لدينا أن اللغة كغيرها من الأدوات أو الوسائل، تستخدم في الصراع بين الثقافات، أو الحضارات أو حتى الأطر السياسية، ومجالات حياتية أخرى لدى الشعوب. لكن المسألة تختلف بين ثقافة وأخرى تبعًا للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي تعيشها الشعوب.

لقد أدركنا من خلال الاستقراء في التاريخ القديم والحديث، أن الكثير من الشعوب أولت اللغة أهمية بالغة كأداة توظف في خدمة الصراع، بالمقارنة مع آليات أخرى، مثل استخدام الأدب، أو الرسم، أو الفنون، أو الموسيقى، أو الإعلام بشكل بارز، في كثير من الأحيان، وقد بانَ الأمر لدى الشعوب التي حكمت شعوبًا أخرى حتى كادت أن تنسيها لغتها وحضارتها، كما هو الأمر لدى الشعوب العربية في شمال إفريقيا (المغرب والجزائر)، أو ربما الأقلية الكردية التي تعيش في تركيا، حيث اضطرت تركيا في الآونة الأخيرة أن تجعل اللغة الكردية لغة رسمية في المدارس لدى الأقلية الكردية، بهدف الإيفاء بشروط انضمامها إلى

الاتحاد الأوروبي، أو كما هو الأمر في موريتانيا إذا أدركنا مدى معاناة أهلها أمام اللغة الفرنسية التي سيطرت على جميع المرافق الإدارية في الدولة، وهي تسعى الآن جادة لجعل العربية لغة رسمية.

قد يكون الصراع في كثير من الأحيان صراعا بين لغة وأخرى، أو صراعا في اللغة الواحدة كما هو الأمر في العربية، أو صراعا بين لهجات محلية عامية، والذي يظهر جليا في الأردن، لكن الأخطر من ذلك الصراع اللغوي لخدمة أيديولوجيات فكرية أو سياسية وكأداة فاعلة في الصراع بين الشعوب المتنازعة.

لا ريب أن الكتاب المشار إليه أعلاه يعد دراسة أولية نسبيا في هذا المجال، لأن الدراسات العربية حول مسألة الصراع العربي- الإسرائيلي تركزت في مجالات سياسية وفكرية وعسكرية. رغم أن موضوع دراسة الكتاب حظي باهتمام كتاب إسرائيليين وغربيين، عدا الدراسة التي قدمها ياسر سليمان[1] (٢٠٠٤)، وإدوارد سعيد (٢٠٠٤).

إن القيمة المركزية في الكتاب ترتكز على المفاهيم والمصطلحات اللغوية التي انبثقت في ظل الصراع العربي- الإسرائيلي في الشرق الأوسط بالمفهوم العام، أو الصراع بين إسرائيل ودول الجوار العربية، أو بين الأولى والفلسطينيين، أو صراع الأقلية العربية مع الإسرائيليين في الداخل.

يشمل الكتاب لأمارة ومرعي ستة فصول، يتناول الفصل الأول اللغة في حالات الصراع العربي – الإسرائيلي، على أساس أن اللغة تعتبر عاملا أساسيا في نشر وتشكيل الإيديولوجيات المختلفة، ثم يشير الباحثان إلى العلاقة بين اللغة والهوية، اللغة والسياسة، اللغة والإيدولوجيا، وموضوعات أخرى، كل ذلك لإلقاء أضواء جديدة على الصراع العربي الإسرائيلي.

---

[1] انظر: Y. Suleiman, *A War of words: Language and Conflict in the Middle East,* Cambridge, 2004. قارن: إدوارد سعيد، الاستشراق، بيروت، ١٩٨١.

أما الفصل الثاني من الكتاب، فهو بمثابة مدخل إلى الصراع العربي-الإسرائيلي من خلال قراءة تحليلية للمصطلحات السياسية التي برزت منذ بداية الصراع، نعني حركة الاستيطان اليهودي مع مطلع القرن العشرين ووصولا إلى الحروب مع دول الجوار، انطلاقا من أن الصراع ليس صراعا سياسيا- عسكريا فحسب، وإنما يحتوي على المسائل الرمزية والثقافية، كل ذلك في ظل الدور الأجنبي في هذا الصراع نخص بالذكر بريطانيا وأميركا. نذكر على سبيل المثال وفق المفهوم العربي- الإسرائيلي (فلسطين- أرض إسرائيل؛ حق العودة- قانون العودة) إلخ. ولا شك من أن هذه المصطلحات لها أثرها الكبير في تسويق السياسة المحلية والخارجية لكل طرف من الأطراف، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مثل هذه المصطلحات تلعب دورا بارزا في مسألة الهوية أو القومية.

في الفصل الثالث يتناول الباحثان الانتفاضتين الفلسطينيتين بين أعوام (١٩٨٧- ١٩٩٣)، و(٢٠٠٠- ٢٠٠٥)، حيث أدّت الانتفاضتان إلى نشوء مصطلحات عديدة في الساحة الداخلية والخارجية لدى كلا الطرفين، بهدف التأثير على الرأي العام العالمي والمحلي، وبغية خدمة الجانب السياسي والنفسي والعسكري بشكل ملحوظ.

فمن الألفاظ التي استخدمها الجانب الإسرائيلي، نأخذ على سبيل المثال كما ورد في الكتاب: إرهابيون، تصفية جسدية، قنبلة مؤقتة، يقابلها في الجانب الفلسطيني: أطفال الحجارة، اغتيال، قنبلة بشرية.[٢] لكن تبقى المسألة في هذا المجال غير متوازنة، بسبب كثافة الإعلام لدى الجانب الإسرائيلي حتى يمكن القول إنه يوجد نوع من السيطرة أو التحكم بالمصطلحات لديهم.

أما الفصل الرابع فقد أشار المؤلفان فيه إلى حرب لبنان الثانية وأثرها على المخزون اللغوي العام، مشيرين إلى المواجهة الأولى التي استهدفت طرد الفلسطينيين من لبنان، وهي بمثابة ما قبل العولمة.

---

[٢] انظر الجدول في كتاب أمارة ومرعي، دار الفكر ، الاردن، ٢٠٠٨، ص ١١٢- ١١٣.

الكلمة التي استخدمت لدى الطرفين العربي (حزب الله) والإسرائيلي، "أسر" في الطرف الأول، و"اختطاف" لدى الطرف الثاني، وثمة فرق بين عملية سياسية وجنائية، حتى تسمية المحاربين اختلفت بينهما. ففي القاموس الإسرائيلي استخدموا كلمة" مخربين" مقابل كلمة "مجاهدين" في صفوف حزب الله كما ورد الأمر لدى الباحثين.

نوّه الباحثان إلى أن إسرائيل وظفت قاموسا لغويا، ترك تأثيره على الرأي العام الإسرائيلي والعالمي، بالمقابل لم يقلل حزب الله من استخدام كلمات لها أبعاد نفسية أو ربما تخدم شرعية أسر الجنديين الإسرائيليين. وتنتهي الحرب باستخدام مفردات لدى الجانبين للتعبير عن انتصاره.

يبحث الفصل الخامس من هذا الكتاب مفهوم "العربي الإسرائيلي الجديد" في سياق الاستشراق اللغوي، انطلاقا من العلاقة التي تربط الأكثرية الإسرائيلية بالأقلية الفلسطينية ليس في إسرائيل فحسب، وإنما في الضفة الغربية وغزة والشتات. لكن الجانب الهام في هذا الفصل، هو العرب الفلسطينيون في إسرائيل ومدى اهتمام السلطة في خلق هوية عربية جديدة من نتاج إسرائيلي لتشير إلى تهميش العرب، ولكن بدأت تدرك أطراف إسرائيلية سياسية أن الأمر ليس كذلك.

من الأمثلة الحية التي سردها الباحثان، ما يرتبط بتسمية العرب الذين يعيشون في الداخل، حيث وصلت الأسماء إلى واحد وأربعين اسما لها أبعاد سياسية ومكانية وأخرى.[٣] بالإضافة إلى أسماء ومصطلحات ترتبط بمفهوم عربي في القاموس الفكري الإسرائيلي (مثل عربي قذر، أكل عربي...). وثمة جانب هام في هذا الفصل أيضا يتعلق باعتداءات المؤسسة على مواطنيها كلاميا وجسديا وفق سياقها التاريخي.

أما الفصل السادس فقد تمحور حول نتائج الدراسة ومدى أهميتها في جانب مهشّم لم يهتم أحد به من قبل نسبيا، نعني البعد اللغوي في الصراع العربي الإسرائيلي.

---

[٣] انظر: الكتاب: ص٢٢٢- ٢٣٢.

لا شك أننا أمام دراسة مختلفة ومميزة ستترك أثرها على العديد من الباحثين الذي يهتمون في مسألة الصراع بين الشعوب، خاصة إذا اعتبرنا بأن اللغة تفصل بين البشر وتحدد معنى الانتماء إلى المجموعات الإثنية والعرقية.

وينبغي لنا القول في النهاية أن الكتاب جاء ليوضح أمام القارئ بأنّ اللغة إضافة إلى اعتبارها وسيلة تواصلية فهي بمثابة وسيلة من الوسائل التي يتم من خلالها فرض هوية جديدة على الأرض بل هي تحمل إيدولوجيات معينة، انطلاقا من أنها عملية اجتماعية ثقافية سياسية تتخذ شكلها مع البيئة التي تعيش فيها وهي تخوض صراعات متوازية مع الصراعات السياسية والثقافية.

غالب عنابسة